اللغة العربية في مدارسنا (١)

اللغة العربية لغة البلاغة والبيان لغة الخيال والشعر ودقة التشبيه لغة تكاد تفوق جميع اللغات لغزارة مادتها وحسن اسلوبها ورقة معناها وشدة تأثيرها. لغة تجتذب قلوب الاذكياء متى فهموها وتجلى لاعينهم بهاؤها فما بالها الآن اصبحت غريبة بين اهلها ينفر منها ابناؤنا وبناتنا الغير ما سبب ذلك سوى صعوبة الطريقة المتبعة في تعليمها حتى اصبح يتهيبها صغار المتعلمين ويستصعبون تعلم اللغات الاجنبية في جنب تعلمها وهم في ذلك معذورون لانهم يفاجأون في اولها بالصعب المر فيبتدئ التلميذ الصغير بتعلم جميع الحروف الهجائية وهي ثمانية وعشرون حرفاً دون ان ندلهُ على ما فيها من السهل والصعب وكأننا استصغرنا عددها عليه فاضفنا اليها (لام الف) ولا ادري ما فائدة هذا الحرف المركب بين الحروف الهجائية المفردة. ويتعلم بعد ذلك الحركات المختلفة كالفتحة والكسرة وغيرهما دون ان يمرن على قراءتها بامثلة كثيرة لتثبت في ذاكرته وما يكاد ينتهي الى آخر هذه الحركات الكثيرة المشعبة حتى يكون قد نسي الفتحة والكسرة وكيف ينطق بهما

يبتدئ بعد ذلك كله في المطالعة تطبيقاً على ما اخذهُ من القواعد فتكون اول كلمة يقرأها في كتاب المجاه (بَطٌّ) وما شاكلها فكأننا نظن ان كلمة بط هذه سهلة لانها تتركب من حرفين وقد فاتنا انها انما تتركب في الحقيقة من اربعة احرف اذ تنطق (بَطْطُنْ) ولو كانت هذه الحروف الاربعة ظاهرة محسوسة لهان الامر على التلميذ الصغير فقد يسهل عليه ان يقرأ (دَحْرَجَ) اكثر من ان يقرأ تلك الكلمة الصغيرة في الظاهر الكبيرة في الباطن. لهذا ترى التلميذ الصغير وقد ارتبك في امره ولم يعرف كيف يقرأ فاعتمد على ذاكرته وردد ما سمعهُ دون ان يقرأ ما يراهُ خصوصاً اذا رأى صورة البط بجانب هذه الكلمة فهو لا يتأخر عن اعادتها كلما نظر الى الصورة

ينتقل من ذلك الى دور الكتابة فيترسل المعلم في شرح رسم الحروف على جميع اشكالها المختلفة ولا يملُّ ان لكل حرف منها ثلاث صور صورة وهو في اول الكلمة وصورة وهو في وسطها وصورة وهو في آخرها ويطيل في ذلك الشرح وتلاميذهُ جالسون بلا عمل يتململون ضجراً وسآمة ولا بدع ان تعودوا من هذا سوء النظام في الدرس وكرهوا لاجله اللغة العربية. ولو كتب لهم كل يوم سطراً مما يقرأون بعد ان استنتج منهم هجاءهُ وناقشهم في اشكال الحروف المتشابهة وغير المتشابهة ثم امرهم بعد ذلك بكتابته ومحاكاته بالدقة لتعودوا

(١) خطبة القتها الآنسة نبوية موسى في ٢٤ ابريل في اجتماع اتحاد النساء التهذيبي

رسم هذه الحروف دون ان يشعروا بصعوبة ما . فان الخط نوع من الرسم يشغل الانسان بتدقيق النظر اليه ومحاكاته مراراً لا بكثرة الكلام وطول الشرح

ولقد صادفت مرة سيدة اجنبية فاخذت تظهر لي اسفها الشديد لعجزها عن تعلم اللغة العربية مع شدة ميلها الى ذلك وقالت انك لو اردت تعلم اي لغة اجنبية فانك تتعلمين اولاً رسم ما لا يزيد عن سبعة وعشرين حرفاً فقط اما اللغة العربية فانك تتعلم فيها تسعة وعشرين حرفاً ولكل حرف منها ثلاث صور فيكون مجموع صور الحروف التي تتعلم رسمها سبعاً وثمانين صورة وكفى بذلك صعوبة على المبتدئ . ولقد احضرت لي استاذاً فلما علمت منهُ هذا سئمت وتركت الدرس . فتعهدت لها بان اقوم بتعليمها اللغة العربية على شرط ان لا اعلمها اكثر من ثمانية وعشرين حرفاً وان استنتج منها جميع الحروف المكتوبة في الكلمات التي تقرأها دون ان اعلمها اكثر من صورة واحدة لكل حرف . فكنت اذا مرت بحرف لم تعرفهُ اكلفها ان تنظر الى الحروف الهجائية المفردة لتعرف اي حرف منها يشبههُ ولو في بعض اجزائهِ ولقد مرت بكلمة (عَجَزَ) فقالت ان اول جزء منها يشبهُ رأس العين والثاني يشبهُ رأس الجيم والثالث زَيْنٌ قلت حسناً فلا تأكدين انها عين وجيم وزين . واستمرت على ذلك فكانت تسرُّ جداً بمعرفتها الحروف الموصولة بنفسها دون ان ارشدها اليها ولم تخطىء على ما اتذكر الاَّ في العين والميم في وسط الكلمات وقد اقبلت اقبالاً عظيماً على تعلم اللغة العربية . فاذا كانت هذه السيدة المتنورة قد انصرفت عن تعلم اللغة العربية لصعوبة الطريقة المتبعة في تعليمها فما بالنا بالاطفال الصغار الذين لا يقوون على تحمل المشاق وهل نلومهم ان قاموا وقعدوا اثناء الدرس وافسدوا على المعلم النظام ولم يستفيدوا منهُ شيئاً

واغرب من هذا ان المعلم يشرح رسم الحروف وكيفية وصل بعضها ببعض ثم يملي على التلاميذ كلمات لم يعتادوا كتابتها من قبل كأن شرحهُ هذا آية من عند الله قد اثبتت في ايدي التلاميذ فجعلتهم يكتبون ما يريد ويملي هذه الكلمات على التلاميذ فيكتبونها باشكال غريبة لم تشاهد الاَّ في كتاباتهم وبذلك يعتادون رداءة الخط وعدم النظام . وكان يحسن ان لا يملي على المبتدئين شيئاً بل يستنتج منهم هجاءها ثم يكتبها على السبورة بخط جيد ويأمرهم بنقلها في كراساتهم وبذلك يعتادون حسن الخط وصحة الوصل

يقاسي التلاميذ هذه الصعوبات حتى اذا تخطوها وعرفوا كيف يقرأون ويكتبون صرفنا كل اوقاتهم في مطالعة كتب ركيكة التعبير ولم نعتنِ كل هذه المدة بتعليمهم مبادئ الانشاء ولم نلتفت ايضاً الى تفسير معاني ما يطالعونهُ ولا شرح اسباب خطإهم في اواخر

الكتابة بل اكتفيت بردهم الى الصواب هذا اذا لم تتركهم وخطأهم على ان التلاميذ الصغار في وسعهم ان يميزوا الفاعل والمفعول وغير ذلك اذا شرحناهُ لهم بالفاظ يفهمونها كأن نكتب امامهم جملة سهلة مثل (كتب الرجل) ونسألهم عمن كتب ونستنتج منهم ان الرجل هو الذي فعل الكتابة وانا لذلك نسميهِ فاعلاً ونرفعهُ وهكذا حتى يتمكنوا من تمييز المرفوعات والمنصوبات وغيرها لا ان نتركهم على جهلهم بها الى ان نسرد عليهم التعاريف المطولة التي ربما لا يفهمونها فانما يهمنا ان يميز التلميذ الفاعل فيرفعهُ والمفعول فينصبهُ ولا يهمنا تلك التعاريف الطويلة العريضة التي يرددها التلاميذ على غير جدوى يهمنا ايضاً ان يفهم التلاميذ معاني ما يقرأون ويحاكوهُ في كتاباتهم فيجب ان يعتادوا من السنة الاولى تركيب جمل بسيطة من مفردات تنتخب من دروس المطالعة ثم كتابة حكايات قصيرة تلقى عليهم لا ان يحرموا من التمارين الانشائية في السنتين الاولى والثانية حتى اذا انتقلوا الى السنة الثالثة والرابعة كلفناهم انشاء موضوعات لا قبل لهم بها فيعجزون عنها وتحبط همتهم ويكون ذلك داعياً الى انصرافهم عن اللغة العربية وكثرة شكواهم من صعوبتها

هذا فضلاً عما يلاقيهِ التلاميذ من الصعوبة في دروس الاملاء التي لا تأتيهم الاَّ مشحونة بالكلمات المهجورة وربما كان اكثرها ميتاً لا يستعمل فكأننا نفاجئ التلاميذ بالصعب ونطلب منهم معرفة ما لا نستعملهُ نحن في كتاباتنا العادية كما نعلّم التلميذات الصغيرات التصغير والنسبة ونحن لا نرى فيما نقرأهُ الآن من الكتب والمجلات اسماء مصغرة ولو رأيناها لنفرنا منها واستهجناها ويندر ان نرى ياء النسبة الاَّ في كلمات معروفة لا خوف على التلميذة من خطأ فيها فكأننا بهذه القواعد وغيرها من قواعد الاعلال والابدال والصرف نخلق للتلاميذ صعوبات هم في غنى عنها

وما احوج هؤلاء التلاميذ الى صرف ذلك الوقت في قراءة مقالات حسنة الاسلوب وانتقاد ما يعن لهم انتقادهُ واستحسان ما يرون استحسانهُ منها ليتمكنوا من فهمها حق الفهم ومحاكاتها في كتاباتهم . ولست ارى شيئاً يفيد التلاميذ في معرفة اللغات ككثرة المطالعة وانتقاد ما يطالعونهُ انتقاداً معتدلاً لهذا اراني في حاجة شديدة الى وضع كتب حكايات ادبية باللغة العربية تميل التلاميذ الى قراءتها خارج الدرس لتتولد فيهم ملكة الانشاء . ويسوءني جداً ان ارى مدارسنا خالية من تلك الكتب المفيدة ونحن مشتغلون بدرس تلك القواعد التي شغفنا بها . ولا ارمي بهذا القول غيري واريءُ منهُ نفسي بل اقصد بهِ نفسي قبل ان أوجههُ الى احد من زملائي المعلمين وارجو ان توفق جميعاً الى اصلاح تلك الحال فما فاتنا امس لن يفوتنا غداً